"مركزية محمد علي الإدارية
وأثرها على وضعية نفوذه في شبة الجزيرة العربية
كجزء من مشروعه السياسي"

د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم

كان إرسال محمد علي جيوشه إلى شبه الجزيرة العربية، بناء على تكليف الدولة العثمانية له باسترداد الحرمين الشريفين من يد آل سعود، وكان نجاح محمد علي في تحقيق هذا الهدف عاملاً أساسيًا من عوامل تفكيره في ضم شبه الجزيرة العربية إلى دولته، ولذا كان توسعه في حروبه في قلب الجزيرة وشرقها وشمالها، بل وقد مد نفوذه إلى اليمن، واستطاع بعد سقوط الدرعية أن يضم معظم أجزاء شبة الجزيرة العربية إلى نفوذه[1] وعمد إلى ربط هذه المناطق بإدارته في القاهرة واتبع أسلوب المركزية الإدارية الشديدة في حكمها، وإن كان نظام الحكم الذي وضعه لمناطق شبه الجزيرة العربية، يستكمل أجهزته الإدارية والمالية والقضائية ظاهريًا، فإن هذه الأجهزة كانت عبارة عن أدوات تابعة له في القاهرة، لتنفيذ أوامره وقراراته التي تقوم طبقًا لفلسفته في الحكم على إظهار سطوة الحكومة.

مظاهرة مركزية محمد علي الإدارية في شبة الجزيرة العربية :

أولاً : تقيد حكومة الحجاز بأوامر محمد علي وقراراته واقتصار مهامها على تنفيذ هذه الأوامر والقرارات :

عمل محمد علي تعيين حاكم على الحجاز، وهو في نفس الوقت قائد عام القوات المتواجدة في شبة الجزيرة العربية، وكان لهذا الحاكم حق الإشراف على المحافظين الآخرين، وحكام المناطق، والإشراف على قادة القوات المتواجدة في شبه الجزيرة العربية، إلى جانب إشرافه على الجهاز الإداري والشئون المالية[2]، وكان الذي يشغل هذا المنصب في الغالب، أحد أقرباء محمد علي، أو أحد الأشخاص الذين يثق فيهم

ثقة كاملة، ومع كل هذه الصلاحيات الظاهرية، الممنوحة لحاكم عام الحجاز، فإنه كان عبارة عن منفذ للخطط والأوامر التي تصله من محمد علي في القاهرة، ليس إلا، دون أن يكون له حق الاعتراض على أي منها، بل إن محمد علي كان يرسم لحاكم عام الحجاز الأسلوب الذي يجب أن يسير عليه في إدارته وأنه يجب أن يعرف معرفة تامة " سبل الحكومة، وأصول الرياسة والسياسة[٣]، وأن يدقق النظر تدقيقا تاما في معرفة الأمور، والوقوف على دخائلها، وأن يستعمل الشدة في المواقف التي تستوجب معالجتها استعمال الشدة، وكان يأمره بأنه يجب عليه " التنقل من مكان إلى مكان، ورؤية ما تجب رؤيته، والتفرس فيما تجب فيه الفراسة"[٤].

ويذكره دائما بأن يسير في إدارته على النظرية القائلة : " كما أن الشد والجذب من أحوال المصلحة، وكذلك القلع من مقتضياتها، وهذا مطلوبنا منكم"[٥] وكان يحرص دائما على أن يسلم لحاكم عام الحجاز عند تعيينه القواعد العامة التي يجب أن تسير عليها إدارته للأمور، ولا يخالفها، وكان يطلق علي هذه القواعد اسم " القانون " الذي يلتزم به ويظل بعد تسلمه عمله على إتباعه في " أداء واجباته في زمني القتال والسلام متبعا القانون الذي سلم إليه "[٦]. وكانت أوامره تصل إلى حاكم عام الحجاز متتابعة تنبهه بأن من مهامه الأساسية إظهار سطوة الحكومة وقوتها، وأن ذلك لا يتأتى إلا عن طريق الشدة في المواضع التي يجب فيها استعمال الشدة، لأن القبائل العربية البدوية، لا تخشى شيئا سوى القوة وتستهين فيما عدا ذلك، ويقول ذلك وكأنه مدرك لطبيعة هذه القبائل العربية، قائلا : " إن طوائف العربان، لا تخضع لغير الحاكم القوي، وليس للمرونة (المسكنة)، أي تأثير عليهم "[٧]. ونجده في موقف من المواقف، يأمر أحمد باشا يكن حاكم عام الحجاز بأن يقوم من طرفه : " بطواف تلك الحوالي، والمرور فيها، بضم عربانها إليكم، لأنكم إذا سرتم على هذا النهج، وبذلتم المستطاع، في إدارة تلك الأنحاء، والتصرف فيها فإن العربان يدخلون في حوزتنا على الصورة المبتغاة، وبذلك يكون فهمنا واكتسابنا كثيرا من الأشياء أمرا بديهيا،

فإياكم وأن تدعوا في هذا الصدد أمرًا مساغًا للتهاون ولا جوازًا للتراخي"[٨]. وهكذا نراه يحرك حاكم عام الحجاز حسب أهوائه وإرادته وكما يريد، ويرسم له الخطط التي يجب عليه أن ينفذها ويسير عليها، وليس كما يريد حاكم عام الحجاز كما يرى على أرض الواقع أمامه.

كان محمد علي يرى أن جمع الضرائب – والتي أطلق عليها اسم الزكاة حتى لا تنفر القبائل العربية منها – أحد الركائز الأساسية لسطوة الحكومة وازدهار قوتها، ولما عجزت بعض القبائل عن الوفاء عما يطلب منها، فإن محمد على تمسك بجمع الضرائب كاملة، وأصر على أن يستعمل عماله الشدة في جمعها، لإظهار سطوة الحكومة، حتى لا تنظر القبائل إليها نظرة ضعف ولم يضع اعتبارًا لسوء أحوال بعض القبائل الاقتصادية، وكان موقفه المتشدد هذا، واستعماله القسوة[٩] في جمعها، أحد الأسباب الرئيسية وراء تمرد عربان المدينة، ومع كل ذلك فإن محمد علي، ومركزيته الشديدة في الإدارة لم يترك لحاكم عام الحجاز ومحافظ المدينة الحرية في معالجة أمر هذه التمردات بأسلوبهما، وهما في ميدان التمرد، وإنما كان يرسم هو من القاهرة الخطة، ويأمرهما بالسير عليها، ويتابع تنفيذها بدقة تامة، ويقوم هو بتنفيذ جزء من الخطة التي يراها، فنراه يرسل بنفسه مباشرة إلى شيوخ عربان : عنزة، وحرب، ومطير، وجهينة، القاطنين حول المدينة مراسيم يرغبهم وعربانهم فيها في الأنطواء تحت لواء الطاعة، وأن الذين يفعلون ذلك منهم، سوف يعود عليهم الخير العميم ويتوعد المعاندين والمكابرين بأنهم سوف يصابون بالندم والخذلان، " فالذي يخدم بابنا بالصداقة وحسن الاستقامة، لا يضيع سعيه، ويرى مكافأته "[١٠]. وفي نفس الوقت نراه يرسل إلى حاكم عام الحجاز، يطلب منه أن يغض الطرف، بعض الوقت عن تمردات عربان المدينة وأن يعطيهم الأمان، استجلابًا لقلوبهم قائلاً : فإن من لوازم إدارة الممالك والعناية بالرعية، أن يغمض الطرف عن تأديبهم وتربيتهم، وبناء على هذا أخر الآن تربيتهم، وأعلم محافظ المدينة المومي إليه أيضًا بهذا القرار، على

هذه الصورة[١١] وذلك ليرى ثمرة تعامله وديًا مع شيوخ القبائل المتمردة، ولكن أسلوبه القائم على الترغيب فشل، ولم يستطيع حاكم عام الحجاز أن يتصرف حسب رؤيته للواقع، لارتباطه بالمركز في القاهرة، فهو ينفذ ما يأمره محمد علي بتنفيذه، وإزاء هذا الموقف استغل خطر تمردات العربان، فأرسل يبلغ القاهرة، بما وصل إليه الأمر، فأرسل إليه محمد علي يأمره أن يقوم بإبراز " الحكمة وسطوة الحكومة، وإلى السير والنظر إلى كل محل والطواف والإشراف على كل ناحية، كما نطلب أن تأخذوا على عاتقكم وأن تلينوا مع الذين يؤدون زكاتهم المقررة وتستميلوهم، وأن تربوا من يعاندون، بأن تأدبوهم، وتجبون منهم بضعة أضعاف زكاتهم، وأن لا تنظروا في هذا الصدد إلى ما يقوله زيد وعمرو، بل قصوا – كما يفعل الحكام – طيلسان الحكومة بنفسكم، خيطوه بنفسكم[١٢]، وبدأت أوامره تصل متتابعة إلى حاكم الحجاز، تحثه على اتباع أسلوب الشدة والقسوة مع العربان "باسم سطوة الحكومة"[١٣] على حد تعبيره، دون أن يترك له حرية التصرف، لأنه كان يعتقد أن العربان لا يخضعون لغير الحاكم القوي، وليس للمرونة عليهم أي تأثير.

هكذا كان حاكم عام الحجاز وكل الأجهزة التابعة له، مرتبطًا ارتباطًا جذريًا بمحمد علي في القاهرة، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا بأمر القاهرة. ولا يضع تخطيطًا مغايرًا لما يأتي من القاهرة، وهذا ما كان يريده محمد علي، ويعمل عليه لإحكام مركزيته على كل ما يتبع إدارة الدولة العليا.

ونتيجة لهذه المركزية استغل خطر تمردات العربان، وانفجرت الثورة العسكرية ضد محمد علي، وهنا نجده يرسل إلى حاكم عام الحجاز يأمره أن يتحرك على رأس قوة للقضاء على فتنة هؤلاء الثوار، وأن يؤمن تلك الجبهات، وأن يعالج الموقف : " بحكمة، كما يجدر بالحاكم، حتى لا يفلت زمام الأمور، في السيطرة على الموقف سيطرة كاملة "[١٤].

ازداد تمرد عربان الحجاز واتسعت دائرته، فيرسل محمد علي إلى أحمد باشا

يكن، حاكم عام الحجاز، يأمره أن يخرج بنفسه : " وأن تكسروا من يلزم كسرهم، وأن تنظموا شغلكم، وتضعوا مصلحتكم في أصولها، وأن تخلصوا الحوالي المذكورة، من أهل الفتنة والفساد، وأن تطالعوا مكاتبتنا الأخرى المرسلة في طي هذه المكاتبة، وأن تفكروا فيها جيدًا، وتطبقوا عملكم على مقتضى ذلك، وعندما يكون معلومًا لكم أن ذلك مطلوبنا، يلزم صرف المقدور على الوجه المحرر"[١٥]، ومع ذلك لما ازداد تمرد العربان اتساعًا بسبب انشقاق الشريفين : يحي بن سرور، وعبدالمطلب بن غالب، ألقى مسئولية ذلك على حاكم عام الحجاز، وأرجعه إلى تهاونه، وبدأ يتبع معه أسلوب التهديد، إذا لم ينجح في القضاء على هذه الفتنة، فإنه سوف يرسل ابنه إبراهيم للقضاء عليها، وفي هذه الحالة سيكون جزاؤه، إما بالقتل، أو بالسجن في قلعة أبي قير، حيث أن القضاء على هذه الفتنة أمر لا بد منه، حتى ولو أدى ذلك إلى حضوره هو بنفسه إلى الحجاز لإنهائها " ولا ندع هذا الأمر، ولا نتخلى عنه إلى حد تنظيمه، وحتى إذا لزم أذهب أنا أيضًا بالنفس "[١٦]، وأمره أن يخاطب الشريفين المنشقين في أمر إعلان طاعتهما وسفرهما إلى مصر سلمًا، فإذا رفضا فيجب أن يعمل في القبض عليهما جبرًا وترسلهما، وإذا قلتم إني لا أقدر أن أقوم بذلك نحوهما فأقيدوا الكيفية إلى طرفنا بسرعة، لأجل إرسال من يقدر أن يقوم بذلك "[١٧].

هكذا كان أسلوب محمد علي مع قمة نظامه في شبه الجزيرة العربية، حاكم عام الحجاز، الذي كان عليه أن ينفذ ما يؤمر به من القاهرة، ولا يخالف ذلك مهما كانت الأحوال، بل وكان يهدده في أحيان كثيرة إذا ما ظهر منه أي عجز في تنفيذ هذه الأوامر، وظل هذا حال الإدارة في شبة الجزيرة العربية، تنفذ أوامر محمد علي دون مخالفة حتى انسحاب قواته من تلك الأنحاء سنة ١٨٤٠م.

فماذا كان أسلوب محمد علي مع القوى المحلية التي استعملها كأدوات له ؟

ثانيا : جعل القوى المحلية مرتبطة بفلك مركزيته :

كانت القوى المحلية التي استعملها محمد علي كأدوات لحكمه ومركزيته منحصرة في شريف مكة وبعض الأشراف الموالين، وبعض مشايخ القبائل، وبعض أفراد أسرة بني خالد، وسنناقش تعامله مع هذه الفئات.

أما بالنسبة للأشراف : فإن محمد علي نجح في جعلهم يدورون في فلك مركزيته، فقد كان شريف مكة عند وصول قواته إلى أرض الحجاز، الشريف غالب ابن مساعد، وكان محمد علي قد وقف على أسلوب الشريف غالب الذي سار عليه في تعامله مع القوى المتصارعة، كما أدرك أن أسلوب الشريف غالب هذا : " كان من أسباب استعمال الدعوة الوهابية، وأن بقاءه في مركزه، قد يحول دون فوز الحملة وسرعة وصولها إلى غايتها، فأمر بالقبض عليه"، أثناء وجوده بمكة في ذي الحجة ١٢٢٨هـ/ديسمبر ١٨١٣م، وصادر أمواله، وأرسله هو وشريف جدة إلى القاهرة، ومنها أرسل إلى إستا نبول حيث أرسلا إلى سلانيك، وبقيا فيها حتى توفى الشريف غالب سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م[١٨] وعين بدلا منه في شرافة مكة الشريف راجح، لكن هذا الشريف خشي أن يكون مصيره كمصير سلفه، فهر في غفلة محمد علي ومعه أتباعه، وانظم إلى جانب القوات السعودية، وتأثر الكثير من القبائل بموقف الشريف راجح، مما أحرج قوات محمد علي[١٩] مما جعل محمد علي يلجأ إلى إذكاء روح الصراع بين الأشراف بعضهم بعضا، فقد عين الشريف يحي بن سرور شريفا لمكة ولكنه في نفس الوقت أعطى للشريف شنبر بن مبارك المنعمي بعض اختصاصات شريف مكة، فقد فوضه في شئون البادية لأنه كان : " مشهورا بالعقل والديانة وحسن التدبير، فصارت تلك الأمور كلها بيده"[٢٠] وكان هذا التفويض بإيحاء من الشيخ أحمد تركي، الذي كانت تربطه بمحمد علي صداقة قوية، كما فوض بعض الأشراف الآخرين، شئون الحكم على بعض المناطق الحجازية، واليمنية الأخرى، أي سلب شريف مكة الكثير من اختصاصاته، ورأى الشريف يحيى بن سرور شريف مكة

أحمد باشا يكن حاكم عام الحجاز قرب إليه الشريف شنبر بن مبارك المنعمي، وفوض : " إليه أكثر من أحكام الأشراف والعرب، وما يتعلق بهم، فاستحكمت العداوة بين الشريف يحي بن سرور، والشريف شنبر بن مبارك، وحصل بينهما معارضات ومناقشات في قضايا كثير "[٢١] فقام الشريف يحي بن سرور بقتل الشريف شنبر بن مبارك، عند باب الصفا بالحرم المكي، فقام محمد علي بعزل الشريف يحي بن سرور وعين بدلا منه الشريف محمد بن عون[٢٢]، مما أثار تمرد الأشراف ضد حكم محمد علي، حيث وحد الشريفان يحي بن سرور وعبدالمطلب بن غالب جهودهما ضد حكم محمد علي، لمهاجمة مكة وطرد قوات محمد علي منها واستجاب لتمردهما عدد كبير من القبائل العربية[٢٣]، على إثر نشوب هذا التحرر أدرك محمد علي أن الأمر يحتاج إلى إتباع أسلوب الحزم والشدة، فسارع بإرسال الأوامر المشددة إلى أحمد يكن، حاكم عام الحجاز، بأنه يجب عليه أن يواجه الموقف بالأسلوب الحازم الجاد،دون تهاون أو تراخي، مبديا استعداده إلى المجيء بنفسه لمواجهة هذا الموقف، طالبا منه أن يتبع مع الشريفين أسلوب اللين أولا، في أمر تأديبهما، فإذا استمر في عصيانهما وتمردهما ورفضا السفر إلى مصر، فيجب عليه أن يعمل في : " القبض عليهما جبرا وترسلهما، إذا قلتم إني لا أقدر أن أقوم بذلك العمل نحوهما، فأفيدوا الكيفية إلى طرفنا بسرعة، لأجل إرسال من يقدر أن يقوم بذلك "[٢٤]، وكان محمد علي يقدر خطورة تمرد هذين الشريفين، لما لهما من مكانة كبيرة بين الكثير من القبائل العربية، لذا أزعجه تمردهما وقرر القضاء عليهما حتى لا يؤدي تمردهما إلى نتائج قد لا تحمد عقباها، وواضح تماما أن محمد علي كان يخطط للقضاء على تمرد الشريفين من القاهرة، ولم يترك لحاكم عام الحجاز، وقائد القوات في الجزيرة العربية، ثمة حرية في التصرف لمعالجة هذا التمرد، وواضح من رسائله إلى حاكم عام الحجاز أنه يطلب منه طبقا لأوامره التي يرسلها له، وهذا منتهى المركزية الشديدة. وفي نفس الوقت عمل أن أمر الأشراف بيده، دون غيره، حتى يظلون يدورون في فلك سياسته،

فطلب من السلطان العثماني أن يمنحه فرمانا يعطيه الحق في اختيار الشريف الـــذي يريده، ويتعاون معه، وأن يصدر الفرمان السلطانى الخاص بتعيين الشريف الجديـــد، خاليا من اسم الشريف الجديد الذي يقوم محمد علي بوضع اسم الشريف الذي يـــدرك أنه سيكون تابعا له فيه، وإن كان ذلك يخالف نظام الشرافة، وقانون الأشراف، ولكـــن محمد علي عمل على أن يكون له نفوذ كبير على الأشراف، وبهذا الفرمـــان الـــذي أعطى لمحمد علي حق اختيار الشريف أصبحت إمارة مكة إمارة وهمية في عـــهده، ذات فاعليات محدودة، وأصبح شريف مكة الذي يعينه محمد علي من التابعين له، بعد أن كان له نفوذه المؤثر[٢٥]. ومن هنا عمل محمد علي جادا في القضاء على تمـــرد الشريفين يحي بن سرور، وعبدالمطلب بن غالب، وطلب من حاكم عام الحجـــاز أن يطبق أوامره بدقة قائلا له : " أن تخرج بالنفس بالاتحاد مع الشريف المشـــار إليـــه (الشريف محمد بن عون)، وأن تكسروا من يلزم كســـرهم، وأن تنظمـــوا شـــغلكم، وتضعوا مصلحتكم في أصولها، وأن تخلصوا الحوالي المذكورة مـــن أهـــل الفتنـــة والفساد، وأن تطالعوا مكاتبتنا الأخرى المرسلة في طي هذه المكاتبة، وأن تفكروا فيها جيدا، وتطبقوا عملكم على مقتضى ذلك، إن ذلك مطلوبنا، يلزم صرف المقدور علـــى الوجه المحرر [٢٦]، أي أنه يطلب منه أن يتعاون مع الشريف محمد بن عـــون، وأن يفهم تعليماته جيدا، وأن ينفذه ما جاء فيها على الطريقة التي رسمها له وحررها إليه، دون تغيير، وهذه منتهى المركزية.

ثم تواصلت متابعة الوضع في الحجاز، ووصل به الأمر إلى تهديد حاكم عـــام الحجاز، ونسب إليه تهاونه سبب استفحال الفتنة، وألقى عليه مسئولية ذلـــك الحـــدث لإهماله، وزاد في تهديده، بأنه إذا لم ينجح في القضاء على هذه الفتنة، فسوف يرســـل ابنه إبراهيم للقضاء عليها، وفي هذه الحالة سيكون جزاؤه إما القتل، وإما السجن فـــي قلعة أبي قير، فالقضاء على هذه الفتنة أمر لا بد منـــه، حتـــى إذا أدى الأمـــر إلـــى حضوره بنفسه لإنهائها : " ولا ندع هذا الأمر، ولا نتخلى عنه إلى حد تنظيمه، حتـــى

إذا لزم أذهب أيضا بالنفس " وعليه أن يعمل في: "القبض عليها جبرا وترسلها"[٢٧] وفي نفس الوقت الذي كان يتشدد فيه مع أحمد باشا يكن في أمر معالجة تمرد الشريفين، فإنه خاطب كلا من الشريف عبدالمطلب بن غالب، والشريف يحي بن سرور، وطلب منهما أن يستسلما ويأتيان إلى القاهرة، وألا ينصاعا إلى أقوال الذين يغرونها حتى لا تقفل في وجهيها سبل العفو والرحمة، بناء على أوامر السلطان العثماني، وحذرهما أن عدم إطاعتهما الأوامر سيكون سببا في مجابتهما والقضاء عليهما وعلى اتباعها، فإذا عجزت قواته عن القيام بهذا العمل، فسوف يتولى مسئولية ذلك بنفسه، حيث لا يصعب عليه شئ "[٢٨]، ولما فشل أسلوبه هذا مع الشريفين طلب من أحمد باشا يكن التصدي لهما، والقضاء على حركتهما بأي سبيل، وأمره أن يتخذ الإجراءات الصارمة، لصد هذه الحركة، وألا يخيفه التفاف العربان : " حول الشريف عبدالمطلب لأن طبيعة العربان سريعة التغير، فقد، جرب مزاج طائفة العربان، تلتهب بشدة النار هياجهم، في ابتداء الأمر، ولأول وهلة، ثم تنطفئ عقب ذلك كنار التين "، لأن العربان إذا : " خوفت عيونهم مرة واحدة، لا يتمكنون من الاجتماع مرة أخرى، في محل واحد فإذ ذاك، لا يفرج عنهم، ويقضى عليهم في المحل الذي يكونون فيه "[٢٩] وعليه أن يتبع الأمور بدقة : " كلما سنحت فرصة، من غير تسرع ولا استعجال"، وحتى يضمن لعمله هذا النجاح، لا بد من أن يتشاور مع أمراء الألاليات، وسائر الرؤساء وأن يدرس معهم الطريق الأفضل لإخماد فتن الشريفين والعربان الذين يتبعونهما، كما يجب عليه أن يتشدد في معاملة المعلمين والمدربين، وأن يجبرهم أن يكونوا دائما مع الجنود "[٣٠].

ثم أرسل إلى أحمد باشا يكن بأن يقوم هو ومعه الشريف محمد بن عون، بتعقب الشريف عبدالمطلب بن غالب، والشريف يحي بن سرور، وعقب وألا يمكناهما من الثبات في الطائف، وسائر المحلات التي يحاولان الاستقرار فيها، وأن يعملوا السيف فمن يظفرون بهم من العصاة وإيادتهم، وقام أحمد باشا يكن بتنفيذ هذه الخطة،

وتمكنت القوات المتعاونة فعلا من حصار الطائف التى وقعت فى أيديها، وأجبرت العربان الذين كانوا يوجدون بجوار الطائف وترتب على إعلان طاعتهم أن أعطى احمد باشا يكن الأمان للشريف يحي بن سرور، ولكنه تمكن من الهرب، فاستطاعت القوات أن تلقي القبض عليه ومعه ابنه الصغير وأبناء أخيه ووضعوا تحت الحراسة في قصرهم الكائن بمكة، واستمروا في مكة فترة[٣١]، ثم رؤى أن بقاءهم في مكة، سوف يكون سببا في : " اختلال أمور الأقطار الحجازية " فأرسوا إلى مصر عن طريق البحر، حيث سافروا في سفينة من جدة إلى القصير، بعد أن وفرت لهم كل مستلزمات الحياة الكافية لهم حتى وصولهم إلى مصر، وكان ذلك بناء على طلب محمد علي الذي أرسل إلى أحمد باشا يكن حاكم عام الحجاز، قائلا له : " نطلب منكم أن ترسلوا الشريف يحي بن سرور وأبناء أخيه إلى مصر فمأمولنا لدى إحاطة علم حميتكم بذلك، بمنه تعالي، أن تهتموا بإنجاز أمر إرساله إلى هذا الطرف"[٣٢] فنفذ ما أمر به.

ثم بدأ يتابع أمر الشريف عبدالمطلب بن غالب الذي هرب إلى جهة عسير ملتجأ إلى "علي بن مجثل " قائلا : " ما هي الفائدة التي تنوبه من فراره، وتسرده على هذا الوجه، هب أنه التحق " بعلي بن بمثل " أليس هذا الرجل من جملة العربان الذي تغلبوا على الشرفاء، وأذلوهم ونزلوهم منزلة والعبيد، ألست أنا الذي أذللت هؤلاء العربان، وقضيت على نفوذهم"، ثم كتب إلى أحمد باشا يكن بأمره بشأن الشريف عبدالمطلب بأنه يجب عليه : " ان يصادر كافة أملاكه وإيراده، وانه ينفذ أمري حالا فمن الظاهر أن عمل عبدالمطلب، لا يعود بفائدة على أقربائه وتعلقاته، بل يورثهم ضررا، أما إذا قدم الطاعة، وجاء إلى هذا الجانب، فلا ينال إلا التجلة والاحترام وحسن الاستقبال"، ثم أبدى استخفافه بعلي بن مجثل، بأنه " ليس رجلا، ذا بطش وقوة لدرجة أن يحتمي به عبدالمطلب"[٣٣]، ولكن الشريف عبدالمطلب، حاول أن يحرز الإمارة على قبائل بني سعد، الموجودين في جهة الطائف بالحجاز، والإقامة في تلك

الجهة بمعرفة على بن مجتل شيخ عسير، فأزعجت المحاولة محمد علي الذي أمر أن تتحرك القوات من مكة والطائف، والقضاء على المحاولة في مهدها، وقبل أن تخوج إلى حيز الوجود، وفي نفس الوقت طلب من الشريف يحي بن غالب، المقيم بالقاهرة، أن يرسل إلى أخيه عبدالمطلب يحثه على الرضوخ إلى الطاعة، ويطلب منه المجيء إلى مصر " للمحافظة على كرامته وشرافته"[٣٤] وأبدى محمد علي استعداده أن يرسل له كتاب الأمان، أما في حالة عناده، فإنه سوف يستمر في مقاومته حتى يقضي على فتنته، واستمر محمد علي يرسم الخطط للقضاء على فتنة الشريف عبدالمطلب بن غالب، حتى تمكن من إنهائها.

أما بالنسبة لتعامله مع بعض مشايخ العربان، فإنه قد أدرك بعد سقوط الدرعية، أن الزعامات القبلية، تعمل على إعادة نفوذها، وبدأ كل منها يثأر لما كان قد حل به في السابق، ولذا عمل جادا على أن يجذب شيوخ القبائل إلى حكمه، واستمرار ولائهم له، فطلب من ا حمد باشا يكن أن يتفرغ لتنظيم " أمور العربان الآخرين، والنظر في شئونهم "، وإمعانا في استمالتهم، قام بمراسلة كل من المشايخ: مشعان بن هزال شيخ عربان عنزة، وواصل بن غانم شيخ عربان حرب في أرض الجديدة، فيصل المطير شيخ عربان مطير، وحمد بن سبيع شيخ عربان جهينة في الجديدة [٣٥]، وخصص لهؤلاء المشايخ وأخوتهم " رواتب عينية شهرية، ومرتبات نقدية سنوية، وكساوي، وكانت أوامره بأن تصرف لهم تعييناتهم.

وتقيد أسماءهم في دفتر الشونة، كما أصدر أمره إلى ناظر الخزينة بأن يصرف لهم مرتباتهم النقديةالمعينة [٣٦] . " ومع كل هذه الوسائل فإن مشايخ هذه القبائل كثيرا ما كانوا يضيقون ذرعا بمركزية محمد علي الشديدة، ويعلنون تمردهم، ثم يعودون إلى الولاء، ثم يعودون إلى التمرد، وظلوا على هذا الوضع غير المستقر إلى حين انسحاب قواته من شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٤٠م.

أما تعامله مع بني خالد، الذين استردوا نفوذهم على إقليم الاحساء بزعامة

محمد بن عريعر وأخيه ماجد، وبدأ بنو خالد يتدخلون في شئون إقليم نجد، وتم الاتصال بين بنو خالد ومحمد علي، واعتبرهم أتباعه[٣٧]، ولكن نجاح الإمام تركي ابن عبدالله في إقامة الدولة السعودية الثانية، وتوحيد إقليم نجد، أفشل خطة محمد علي هذه، حتى تمكن قائده خورشيد باشا من فرض سيطرته على الاحساء ١٨٣٩م. وأعاد شيوخ الاحساء والقطيف إلى بلادهم التي أصبحت تحت حكم قوات محمد علي المباشر، وتبع الإقليم إلى حكم محمد علي المركزي.

*** أثر مركزية محمد علي على وضعية نفوذه في شبة الجزيرة العربية كجزء من مشروعه السياسي :**

كان للمركزية الشديدة التي أتبعها محمد علي في حكمه لمناطق شبة الجزيرة العربية، أثر سيئ على حكمه في هذه المناطق، وكان من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى فشل استمرار سيطرته على هذه المناطق، فمنذ بداية حكمه المركزي، وهو يواجه تمردات القبائل العربية المختلفة، وفي أكثر منطقة في آن واحد، ففي الوقت الذي كانت فيه تمردات عربان الحجاز على أشدها، كانت عسير تشهد ثورة ضاربة مضادة لحكم محمد علي هناك، مما أربك حكومة الحجاز، والقوات التابعة لها، والتي كانت مقيدة في تحركاتها بخطط وأوامر محمد علي، هذا بالإضافة إلى خروج إقليم نجد وشرقي الجزيرة العربية من حوزة محمد علي، ومع كل هذه التمردات فإن محمد علي ظل مصرا على مركزيته في إدارة أمور هذه الحركات الخارجة عن الطاعة، مما شل حركة وتصرف حكومة الحجاز، وجعلها عاجزة عن مواجهة هذه الحركات المضادة[٣٨]، ولم تكن تمردات عربان الحجاز وعسير، هي العقبة الوحيدة التي واجهت حكومة الحجاز، وإنما واجهت هذه الحكومة عقبات عديدة، كان من أبرزها، ثورة بعض جنود قوات محمد علي ذاتها، والذين كانت حكومة الحجاز تعتبرهم الأداه المنفذة لأوامرها، فقد قام جماعة من رؤساء الجنود غير النظاميين، بإعلان تمردهم، وعدم رضاهم عن سيرة الحكومة فيهم، وتبعهم الجنود غير النظاميين الذين كانوا في

معيتهم، مستغلين الظروف التي كانت تمر بها حكومة الحجاز آنذاك، بل والظروف التي كان يمر بها حكم محمد علي في المنطقة العربية بأجمعها، واتسع نطاق هذه الثورة، وازداد خطرها، وقد تمكنت الدولة العثمانية التي كان محمد علي يخوض الحروب ضدها في بلاد الشام وأسيا الصغرى، أن تتصل عن طريق واليها في بغداد، بأحد زعماء الجند غير النظاميين وهو محمد أغا، الذي عرف باسم تركجه بيلمز Turki Bilmaz، الذي عرفت الثورة باسمه، أن يوسع نطاق الثورة ضد حكومة الحجاز، والقضاء على حكم محمد علي في شبه الجزيرة العربية[٣٩]، وهكذا واجه حكم محمد علي المركزي التمرد حتى من جنوده الذين أرسلهم إلى شبه الجزيرة العربية، وكل هذه التمردات شكلت عقبات أمام حكم محمد علي في شبة الجزيرة العربية، مما أدى إلى فشله في السيطرة التامة على شبة الجزيرة العربية، حتى انه حينما تم التآمر الدولي ضد دولته، وأجبر على سحب قواته من هناك، وكانت أوامره، أن يتبع القادة الحرص في سحب القوات ومعداتها، حتى لا تتعرض للأذى من جانب العربان الذين يكنون لها العداء[٤٠]. وما ذلك إلا نتيجة لممارسات محمد علي المركزية التي أورثت في نفوس هؤلاء العربان البغضاء، وأدت إلي فشل حكمه.

الهوامش

(١) مما لا ريب فيه أن وصول قوات محمد علي إلى شبه الجزيرة العربية، ثم ذهابه هو بنفسه إلى الحجاز، كان العامل الأساسي الذي فتح فى ذهنه فكرة مشـــروعه السياسي، وإقامة دولة تضم المشرق العربي، وتحت سيادته وسيادة أســرته مــن بعده، ومن هنا كان ربط شبة الجزيرة العربية بإدارته في القاهرة.

(٢) عبدالرحيم عبدالرحمن : محمد علي وشبه الجزيرة العربيـــة، ط٢ دار الكتـــاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٦م، ص٦٧-٩٨.

(٣) دار الوثائق القومية. دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٨٤) من محمد علـــي إلى محافظ مكة تاريخ غرة ربيع الثاني ١٢٣٧هـ / ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(٤) دار الوثائق القومية. دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٨٤) من محمد علـــي إلى محافظ مكة تاريخ غرة ربيع الثاني ١٢٣٧هـ / ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(٥) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقـــة (٥٠٧)، أمـــر إلـــى محافظ مكة، بتاريخ ٥ جمادى الثانية ١٢٣٨هـ / ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(٦) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٨٤) من محمد علـــي إلى محافظ مكة، بتاريخ غرة ربيع الثاني ١٢٣٧هـ / ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(٧) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٣٢٦) من محمد علي إلى محافظ مكة، بتاريخ ٩ ذو القعدة ١٢٣٧هـ / ٢٨ يوليه ١٨٢٢م.

(٨) دار الوثائق القومية : نفس الوثيقة.

(٩) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٣٢٦)، من محمد على إلى محافظ مكة بتاريخ ٩ ذي القعدة ١٢٣٧هـ / ٢٨ يوليه ١٨٢٢م.

(١٠) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثائق أرقام : ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٧، مراسيم باللغة العربية، أرسلت إلى شيوخ عنزة، ومطير، وحـــوب، وجهينة.

(١١) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقتان برقم (٣٨،٣٥) من محمد علي إلى محافظي مكة والمدينة، بتاريخ ٢٩ صفر ١٢٣٧ هـ / نوفمبر ١٨٢١م. ووثيقة (٧٨) من محمد علي إلى محافظ ينبع، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٢٣٧هـ/٢٤ ديسمبر ١٨٢١م.

(١٢) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة رقم(٧٩) من محمد علي إلى محافظ مكة بتاريخ غرة ربيع الثاني ١٢٣٧هـ/ ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(١٣) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٣٢٦). سبق ذكرها.

(١٤) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٤) معية تركي، وثيقة (١٥٣)، من محمد علي إلى محمد بن عقيل بتاريخ ٥ ذي الحجة ١٢٣٨هـ/١٣ أغسطس ١٨٢٣م.

(١٥) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٢١) معية تركي، وثيقة رقم (٥) من محمد علي إلى أحمد باشا يكن، بتاريخ ٦ ربيع الثاني ١٢٤٣هـ/٢٧ أكتوبر ١٨٢٧م.

(١٦) دار الوثائق القومية : دفتر قم (٣١) معية تركي، ص٥٢، وثيقة (٤٠) من محمد علي إلى أحمد باشا يكن، بتاريخ غرة جمادى الأولى ١٢٤٣هـ/٢٠ نوفمبر١٨٢٧م.

(١٧) نفس الوثيقة.

(١٨) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن : الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥ – ١٨١٨م ط٦ دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ص٣٢٤.

(١٩) نفس المرجع، ص٣٢٥.

(٢٠) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٧٥) من محمد علي إلى محافظ مكة بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٢٣٧هـ/٢٤ ديسمبر ١٨٢١م.

(٢١) نفس الوثيقة.

(٢٢) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن : محمد علي وشبة الجزيرة العربية، ط٢، مرجع سبق ذكره، ص١١٢.

(٢٣) نفس المرجع، ص١١٢.

(٢٤) دار الوثائق القومية : دفتر رقم(٢١) ص٥٢، وثيقة (٤٠) سبق ذكرها.

(٢٥) دار الوثائق القومية : محفظة (١١) بجربرا، وثيقة (٧٨) من محمد نجيب إلى محمد علي، بتاريخ ٥ ذي القعدة ١٢٤٢هـ/ ٣١ مايو ١٨٢٧م.

(٢٦) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣١) معية تركي، وثيقة (٥) سبق ذكرها

(٢٧) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٢١) ص٥٢، وثيقة (٤٠) سبق ذكرها.

(٢٨) نفس الوثيقة السابق.

(٢٩) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣١) معية تركي، ص٤٥، وثيقة (٦٣) من محمد علي إلى محافظ مكة، بتاريخ غرة جمادى الثانية ١٢٤٣هـ/٢٠ ديسمبر ١٨٢٧م.

(٣٠) نفس الوثيقة.

(٣١) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣١) معية تركي، ص ٧٦، وثيقة (١١٧) من محمد علي إلى صالح باشا إلى الشام، بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٤٣هـ/ ٩ مارس ١٨٢٨م.

(٣٢) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣١) معية تركي، وثيقة (١٨٥) من محمد علي إلى محافظ مكة، بتاريخ ٢٠ شوال ١٢٤٣هـ/٥ مايو ١٨٢٨م.

(٣٣) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣٥) معية تركي، وثيقة (٢٤٣)، من محمد علي إلى حبيب أفندي، بتاريخ ١٢ ذي القعدة ١٢٤٣هـ/٢٦ مايو ١٨٢٨م.

(٣٤) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣٥) معية تركي، ص٩٠ وثيقة (٢٦٦) من محمد علي إلى حبيب أفندي، بتاريخ ٢٢ ذي القعدة ١٢٤٣هـ، / ٥ يونيه ١٨٢٨م.

(٣٥) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثائق أرقلم (٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٧) مراسيم باللغة العربية، مرسلة من محمد علي إلى مشايخ القبائل.

(٣٦) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٧٨) سبق الإشـــارة إليها.

(٣٧) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٤) معية تركي، وثيقة (١٥٤) من محمد علي إلى الصدر الأعظم، بتاريخ ٩ محرم ١٢٣٦هـ/١٧ أكتوبر ١٨٢٠م.

(٣٨) عبدالرحيم ، عبدالرحيم عبدالرحمن : محمد علي وشـــبة الجزيـــرة العربيـــة، مرجع سبق ذكره، ص٥ – ٥٣.

(٣٩) نفسه، ص١٧١ – ١٩١.

(٤٠) نفسه، ص١٢٧ – ١٢٩.